

مفهوم الحقيقة من أكثر المفاهيم الفلسفية التباساً وغموضاً، نظراً لتعدد مدلولاته؛ فهو غالباً ما يأتي مرادفاً للواقع، أو الصدق، أو الصحة، أو اليقين، أو ما هو نافع، وبالتالي فهو نقيض للخيال، والوهم، أو الكذب، والخطأ. يمكن اختزال الدلالات الفلسفية للحقيقة في معنيين رئيسيين: الأول هو مطابقة الفكر لموضوعه في الواقع الحسي، والثاني هو مطابقة الفكر لنفسه ولمبادئه. يُحدد التناول الفلسفي لمفهوم الحقيقة على مستويين؛ الأول معرفي (ابستمولوجي) حيث تُعد الحقيقة رهان وغاية كل ممارسة علمية ومعرفية، والثاني قيمي (أكسيولوجي) حيث تُعتبر ممارسة إنسانية تأخذ طابعاً أخلاقياً واجتماعياً. المحور الأول يبحث في العلاقة بين الحقيقة والرأي. الرأي هو اعتقاد لم يخضع للفحص النقدي، قابل للخطأ، وكان يعني عند اليونان "المعرفة العامية" (الدوكسا). يرى أفلاطون أن العلاقة بين الحقيقة والرأي هي علاقة انفصال وقطيعة؛ فالحقيقة توجد في العالم المعقول الثابت، بينما الرأي يسود في العالم المحسوس المتغير، ولا يمكن بلوغ الحقيقة إلا بالتخلص من الآراء والوهم، مستشهداً بأسطورة الكهف. على النقيض، يرى ليبنيز إمكانية الاتصال والاستمرارية بين الحقيقة والرأي، معتبراً أن الرأي القائم على الاحتمال يستحق اسم معرفة، وقد يرقى إلى مستوى الحقيقة. يستدل بتاريخ العلم الذي شهد أفكاراً علمية بدأت كأراء مرفوضة ثم تحولت إلى حقائق، مؤكداً ضرورة أن يكون هذا الرأي صادراً عن المؤهلين وأن يحوي قدراً معيناً من احتمالية صدقه. ومع ذلك، تبقى الفلسفة عموماً ذات رؤية نقدية "معادية" للرأي، وتعتبره عائقاً أمام الحقيقة لافتقاره إلى البرهان وكونه مجرد انطباع أولي، مما يجعله أدنى مرتبة وقيمة من الحقيقة المبنية على العلم والمعرفة. المحور الثاني يناقش معايير الحقيقة. يرى رينيه ديكار، من منظور عقلائي، أن معيار الحقيقة هو مطابقة الفكر لنفسه ومبادئه العقلية، من خلال الحدس (الإدراك العقلي المباشر اليقيني مثل حقيقة "أنا أفكر") والاستنباط (عملية استنتاج معرفة يقينية من معرفة أخرى، تقوم على متواليات منطقية). في المقابل، يذهب جون لوك، من منظور تجريبي واقعي، إلى أن معيار الحقيقة هو مطابقة الفكر للواقع الحسي ومقتضياته. فالإنسان يولد "صفحة بيضاء" خالية من الأفكار الفطرية، وكل معارفه تكتسب من الواقع التجريبي عبر الحواس والملاحظات، وبالتالي فإن الواقع الحسي هو المعيار الذي يميز الحقيقة عن غيرها. وكمحاولات تركيبية، يقدم إمانويل كانط معياراً نقدياً، حيث يرى أن معيار الحقيقة لا يُختزل في العقل وحده ولا في الواقع وحده؛ فالمبادئ العقلية بدون إدراكات حسية تظل جوفاء، والإدراكات الحسية بدون مبادئ عقلية تظل عمياء، مؤكداً الحاجة إلى كليهما. المحور الثالث يتناول الحقيقة بوصفها قيمة، ويتساءل عن مكانة قيمتها، هل هي أخلاقية أم نفعية، وهل هي غاية أم وسيلة؟ يؤكد إمانويل كانط على البعد الأخلاقي لقيمة الحقيقة، معتبراً إياها غاية في ذاتها وقيمة أخلاقية عليا مطلقة وغير مشروطة. فالالتزام بقول الحقيقة واجب أخلاقي في كل المواقف والظروف، ومهما كانت النتائج، لأن الكذب يُعد إخلالاً بنظام العدالة ويُفقد القانون مصداقيته، وهو ما يعكس نزعة الأخلاقية الصارمة. في المقابل، يقدم وليام جيمس، من المنظور البراغماتي/النفعي، البعد الوظيفي لقيمة الحقيقة. فهو يرى أن قيمة الحقيقة تكمن في منفعتها وعمليتها؛ فكل ما هو حقيقي فهو نافع، وما ليس حقيقياً فهو غير نافع. بهذا، تُصبح الحقيقة مجرد وسيلة لتحقيق أهداف ومصالح عملية، سواء كانت لإشباع حاجات حيوية أو اقتصادية، وليست غاية في ذاتها. الأفكار الحقيقية هي تلك القابلة للاستعمال والتحقق الواقعي والتي تزيد من استفادة الإنسان من الوجود. تكشف هذه القضية عن أهمية مقارنة قيمة الحقيقة من أبعاد متعددة تتجاوز البعدين الأخلاقي والنفعي لتشمل تساؤلات أوسع حول حقيقة الوجود والمعرفة والجمال والإنسان والخير.